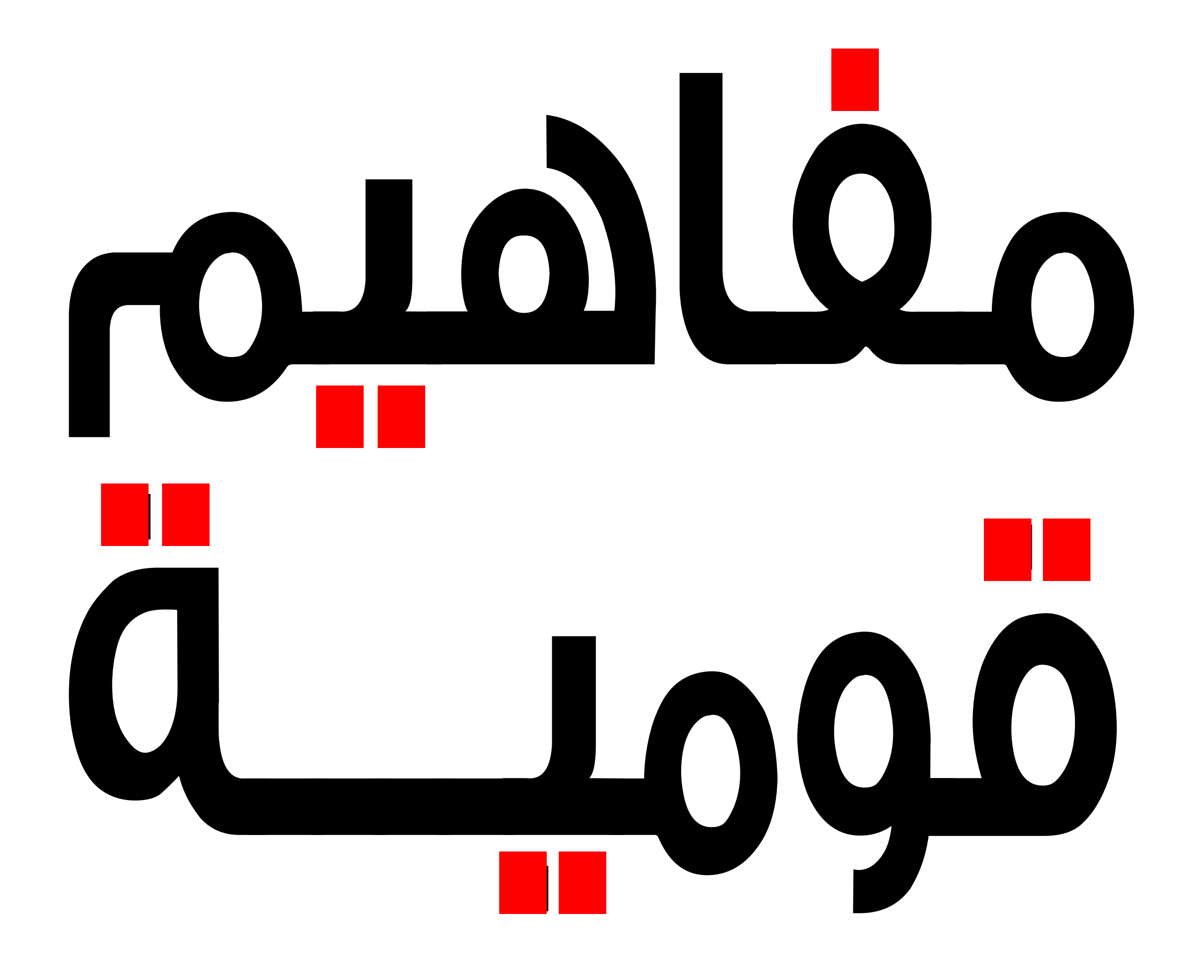
محمد مبارك

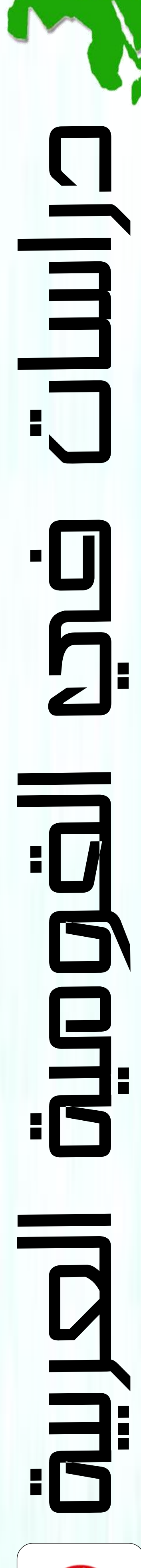
مفاهيم قوميـــة





محمد مبارك







دمشق

10 كانون الأول 1959

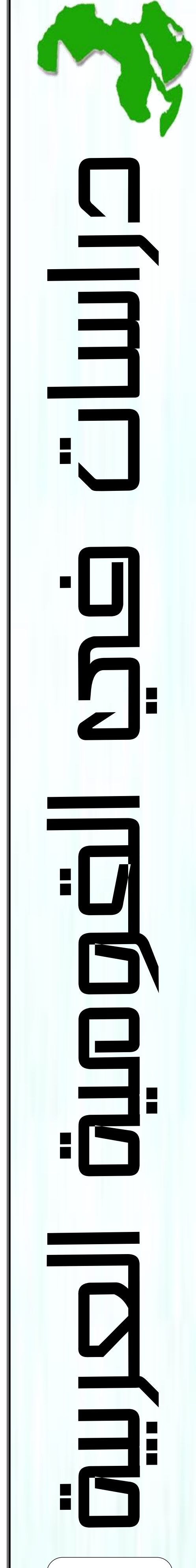
مفاهيم القومية

بين القومية والانسانية

ان البشرية في واقعها كانت ولا تزال تتكون من مجموع وحدات قومية لا من مجموع افراد • ولكل وحـدة قومية موقع من الارض وتاريخ ، اورثاها خصائص ومزايا عرفت بها ، وظهرت في ميـادين حياتها ، أوجدت فيما بين افرادها ارتباطا نشأ عن هـذا الاشتراك في الارض والاصل والتاريخ وفي الصفات والمزايا بوجه الاجمال • وهذا الارتباط بين افراد الجماعة القومية الواحدة فطري طبيعي ، وهو من نوع ارتباط افراد الاسرة فيما بينهم ، وبارتباط افراد القبيلة أو العشيرة ولكن في نطـاق اوسع • وهونوع من التعبير عن **غريزة حفظ الذات الجماعية** • وليس الشعور القومي الا تعبيرا عن هذه الغريزة ، وهو اشبه بالشعور الاناني بالنسبة الى الفرد ضمن الحد الذي يكون دفاعا عن النفس وحفظا للذات الفردية •

وانما تتفاوت الاقوام أو الجماعات القومية في خصائصها ومزاياها بسبب اختلاف الاصل ، وظروف الحياة في رقعة خاصة من الارض ، واختلاف حوادث التاريخ • فهي تتفاوت في طبائعها وامزجتهـا وفي نفسيتها وعقليتها وفي ميولها واتجاهاتها • وهذا الاختلاف نعمة وليس بنقمة • ذلك انه يؤدي الى ان يكمل بعضهم بعضا حين تتلاقى وتتعاون • وذلك كاختلاف الافراد المؤدي الى تعاونهم عن طريق اكمال بعضهم خصائص بعض • فعلى التفـاوت يبنى توزع الوظـائف ، وبتوزع الوظائف يتم التعاون على تحقيق مالا يتحقق في حال الانفراد •

ان الاقوام والشعوب ليـست في الحقيقـة متساوية في مزاياهـا





واستعداداتها وخصائصها . وهذا لا يمنع تساويها من حيث القيمة المعنوية وفي الكرامة الانسانية ، ولكنها مختلفة في مواهبها ، في ذكائها وطريقة فهمها ، في ميولها العملية والفكرية والفنية ، في فعاليتها وحبها للجهد والعمل او ميلها الى الراحة والكسل ، في نفسيتها وامزجتها وانفعالاتها . عرف اجدادنا هذا فوصفوا الأمم كما وصفوا انفسهم بصفات متباينة . وشأن الامم في ذلك شأن الافراد في اختلاف ميولهم ومواهبهم ، وان كنا نعتبرهم اخلاقيا وحقوقيا متساوين . ولذلك كانت مساهمة الامم والشعوب في الحضارة مختلفة ، وقدرتهم على تمثل المبادىء الانسانية ، او على الابداع الفني او النبوغ العلمي متفاوتة كذلك . وهذا لا ينافي ان هذه الشعوب يطرأ عليها المرض والصحة والقوة والضعف والجهل والعلم .

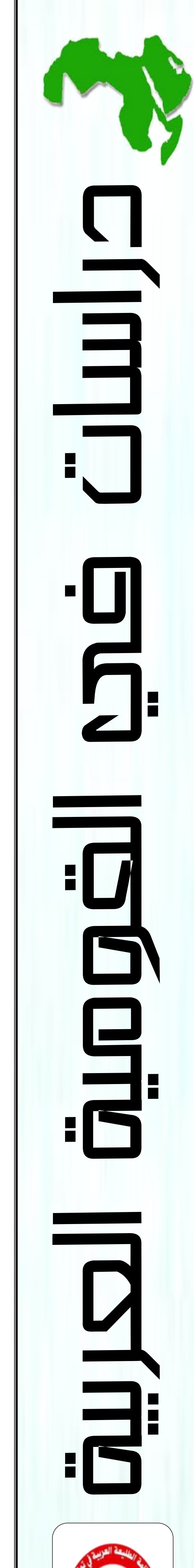
ان هذه **الخصائص المميزة** لكل أمة يجب مراعاتها واعتبارها في تطور تلك الامة وفي مناهج حياتها ونظم تشريعها . ولكن يجب من جهة اخرى عدم اهمال **الخصائص الانسانية العامة** بل ينبغي كذلك العناية بها وتنميتها ، اذ بذلك تلتقي الشعوب والامم في نقاط مشتركة. إن اهمال الخصائص المميزة اضاعة للذاتية ، واضاعة للجهود البشرية ، واقتلاع للجذور التي تصلنا بالبيئة التي نعيش فيها ، كما أن الاعتماد عليها وحدها ، وتخصيص الفروق القائمة بين الامم بالاعتبار ، واغفال الخصائص المشتركة بينها ، تقوية للعصبيات العرقية ، ووقوف دون نمو الروابط الانسانية ، وتعويق للتطور نحو حضارة انسانية متعاونة مثلى .

وان البشرية كما انها لم تقف في حركتها وتطورها خلال العصور

عند حدود الانانية الفردية بل تجاوزتها ـ بعد ان حددتها بحدودها المؤدية الى البقاء وحفظ الذات ـ الى مرحلة الشعور الجماعي في حدود الاسرة ، ثم القبيلة ثم القوم ، كذلك لم تقف الجماعة القومية عند حدود الانانية القومية ، والشعور الذاتي للجماعة ، بل تجاوزتها بدافع طبيعي ايضا الى مرحلة الشعور الانساني والروابط الانسانية المشتركة ، سواء من الناحية الاقتصادية أو الفكرية أو الاعتقادية أو الاخلاقية .

ان في الانسان فردا وجماعة الى جانب غريزة حفظ الذات وحب الذات ، غريزة حب الانطلاق من الذات الى خارجها . واذا كانت الغريزة الاولى تصور الانسان في حالته الراكدة ، فان الغريزة الثانية تصور الانسان في حركته او حياته المتطورة وفي تطوره التقدمي المستمر .

ولهذه النزعة نحو الانسانية تعبيرات كثيرة في مجال الفكر والاخلاق والاديان. ولهذا كانت التيارات العالمية، والروابط الانسانية، سواء ظهرت في شكل مذاهب سياسية ، أو عقائد دينية ، أو آراء علمية ، او عادات اجتماعية ، ملبية لحاجة طبيعية ، وموافقة لفطرة اصيلة ، بل انها آخذة في النمو كلما تقدمت البشرية . واننا لنجد ان **الصعيد المشترك** الذي تلتقي فيه الشعوب والاقوام آخذ في التزايد يوما بعد يوم . ولو أنك اليوم زرت جامعة او مدرسة في عدة بلاد مختلفة في الشرق او الغرب ، أو قرأت مجلة او صحيفة ، او حللت في فندق ، او حضرت جلسة نيابية ، او زرت مصنعا ، لوجدت تشابها عظيما في مختلف هذه الميادين . لذلك أصبحت القوميات المغلقة على

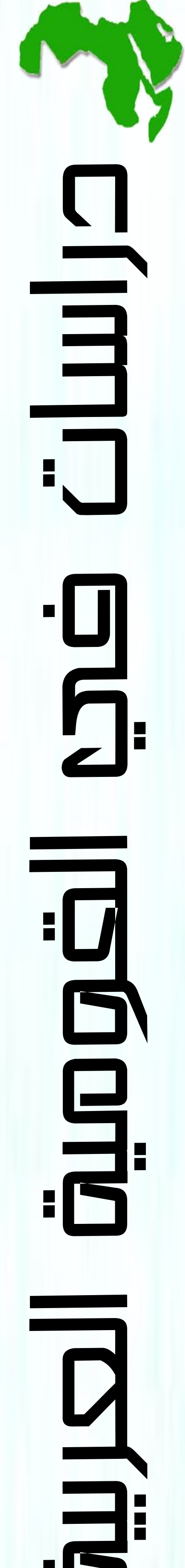


نفسها من مخلفات التاريخ ومن مظاهر التأخر ، وأصبح الاقتصار على الشعور الذاتي في كل جماعة قومية جمودا ونكولا عن السير في طريق التقدم البشري والتكامل الانساني والتعاون بين الشعوب في شتى الميادين .

ومن هنا كان اثر الاديان التي انتشرت بين شعوب كثيرة في الأرض كالمسيحية والاسلام في تقوية هذه الروابط الانسانية والانسجام مع هذا التيار الطبيعي نحو التعاون الانساني . ولهذا السبب نفسه وجدت بعض المذاهب الفلسفية والسياسية ، كالشيوعية على ما فيها من مفاهيم باطلة ، مدخلا طبيعيا الى نفوس البشر حين استفادت من ميل البشر الى فكرة انسانية جامعة .

ان الشعور القومي ، والشعور الانساني ، وكلاهما طبيعي من اصل الفطرة قد يقعان في بعض الظروف ولدى بعض الامم في موقف التعارض والتصارع . وهذه الحالة في نظرنا حالة مَرَضية ، ولكن الحالة الطبيعية المثلى هي في توافق الشعورين وانسجامهما وسيرهما في اتجاه واحد لا في اتجاهين متعارضين ، شأنهما في ذلك شأن التوافق بين الشعور الفردي والشعور الاجتماعي في الانسان . وذلك مايتحقق لدى بعض الامم في بعض ظروف التاريخ ، فينتج اروع آثار الحضارة ويفيد الانسانية اعظم الفوائد .

ان القول بحصر الانسان في الاطار القومي وحده ، واعتبار حدوده هي الحدود القصوى التي يتطلع اليها الانسان ، وقلب واقع البشرية ووجودها القائم الى مثل اعلى وواجب الاتباع ، هو اغفال لاروع ما في قصة الانسان من صفحات الحضارة وما في نفسه من التطلع البعيد الى





آفاق الانسانية ، وتغاض عن التيارات التي اجتاحت وما زالت تجتاح بموجاتها العالمية القوميات جميعا ، كالمسيحية والاسلام وغيرها ايضا من مكتسبات الانسانية ، كافكار الحرية والمساواة والاشتراكية .

ان القوميات لم تستطع مطلقا ان تغلق الابواب على نفسها ، وتسد المنافذ على تحفز الانسان نحو الافق الانساني ؛ كما لم تستطع التيارات العالمية العامة سواء كانت اديانا أم كانت مذاهب فلسفية ، ان تقضي على القوميات ، او تمحو هذا التقسيم الذي قسم الله البشر على اساسه اذ جعلهم شعوباً وقبائل منتسبين الى أسر وأقـوام . وكل ما استطاعت ان تفعله في أقوى عهودها هو أنها خففت من غلواء العصبية القومية وتجاوزها على مبادىء الحق والعدل ، وذلك في ازمنة محدودة وعند فريق من الناس .

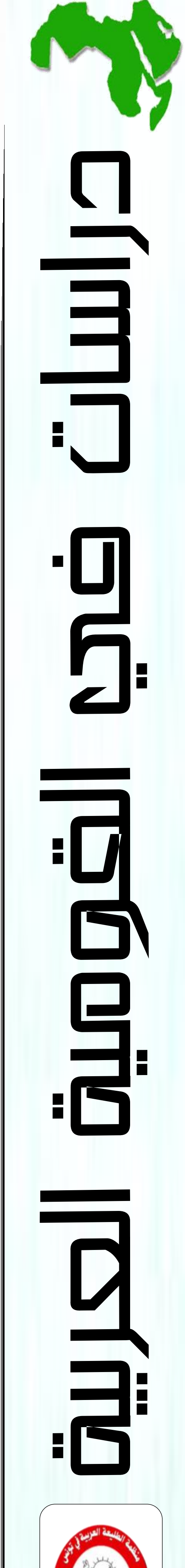
ولكن تقدم الانسان وتطوره الحضاري لم يكن دوما انسياقا مع الواقع وانطلاقا مع الغرائز ، بل كان في أكثر الاحيان ، ان لم نقل دائما نتيجة ثورة على الواقع وصراع مع الغرائز .

فالانانية والغريزة الجنسية من خصائص الانسان وواقعه ، وقتلهما قتل لخصائص الانسان . ولكن ترك الحبل لهما واطلاقهما بلا قيد يعود على الانسان نفسه بالضرر والخسران ، ولذلك كانت المبادىء الاخلاقية تدعو الى كبح غلوائهما والسمو الى الايثـار وحب الغير ، وتقييـد الغريزة الجنسية بقواعد اجتماعية وقانونية . وكذلك جاءت المبادىء الانسانية العامة تربط بين البشر جميعا برباط روحي يدل على وحدة المصدر والمصير ، او برباط خلقي يجعلهم متساوين في كرامتهم تطبق عليهم قواعد متماثلة في العـدالة ، أو برباط قانوني أو غير ذلك من



الروابط التي تمثلت في الاديان الكبرى الشاملة ، او في المذاهب الاجتماعية العالمية ، جاءت هذه المبادىء الانسانية العامة تمثل سمو الانسان وتقدمه ، معدلة للواقع ، مانعة من ان يهضم الحق وتداس الفضيلة بدافع من الغلو في حب الجماعة التي ينتمي اليها الانسان ، غلوا يصل به الى احتقار الجماعات البشرية الاخرى واستحلال الاعتداء عليها وسلب أموالها وسوء معاملتها .

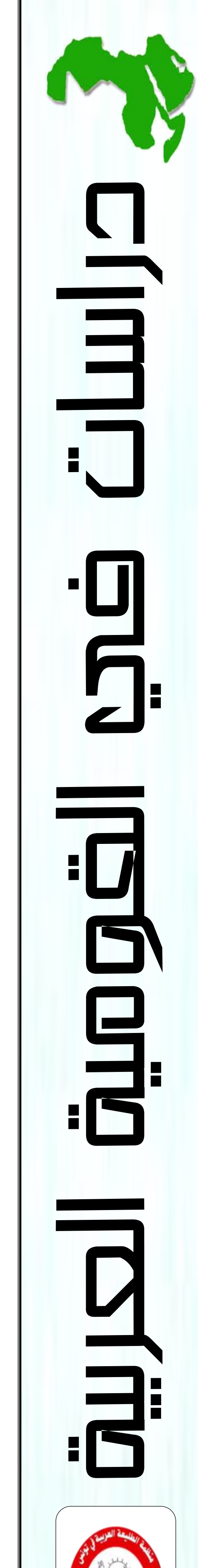
على أن هذه التيارات العالمية ، والموجات الانسانية التقدمية ، انما كان الحامل لفكرتها والداعي اليها والمنفذ لها في واقع التاريخ البشري جماعة بعينها وامة من الامم ، ولم يقع ان يتفق افراد متفرقون من امم شتى على نشر مذهب انساني ويتمكنوا من نشره في العالم ، اذ لابد من وحدة بشرية حية سبق وجود تجانس وانسجام بينها لتحمل الفكرة وتحققها وتناضل في سبيلها . ومن هنا كان تباري الامم وتفاضل الشعوب فيما قدموا للبشرية من افكار انسانية ، وما وسعوا من الصعيد المشترك بين الشعوب ، وما حققوا من تعاون الاقوام واتمام بعضهم لخصائص بعض . ولهذا اقترنت كل فكرة انسانية وكل رسالة عالمية باسم شعب من شعوب الارض قديما وحديثا ، ولو انها انتقلت فيما بعد الى غيرهم . فلا يذكر الاسلام كمبادىء انسانية ونظام عالمي عام ، الا ذكرت الامة العربية ، حتى امتزج تاريخه كرسالة وحضارة ودين بالعرب كشعب وامة ، وبالعربية كلغة ، مع أن الاسلام عمّ شعوبا وأمما كثيرة في الارض . وكذلك في العصر الحديث اقترنت الشيوعية كفكرة عالمية بالشعب الروسي والامة الروسية مع انها انتشرت في دائرة اوسع من هذا الشعب بعينه .



ان تطور البشرية يتم على أساس نمو الوحدات البشريـة الحية المنسجمة التي هي القوميات نموا ذاتيا من جهة ، ونموا على اساس الالتقاء فيما بينها وتوسيع الصعيد المشترك من جهة اخرى ؛ وذلك عن طريق مايخترقهـا من تيارات انسانية فكرية واعتقاديـة واخلاقية واقتصادية ، وما تصل اليه من مراحل متشابهة بسبب وحدة الجنس البشري وتشابه مراحل تطوره . وكل نظرية تبنى على غير هذه الصورة الكاملة للبشرية او هذه المسلمات الواقعية فهي نظرية خاطئة . وكل مذهب عقائدي فلسفيا اخلاقيا كان ام سياسيا لايستند الى هذه الاسس فهو مذهب أبتر مآله الاخفاق .

ملاحظات هامة حول تكوين الامة

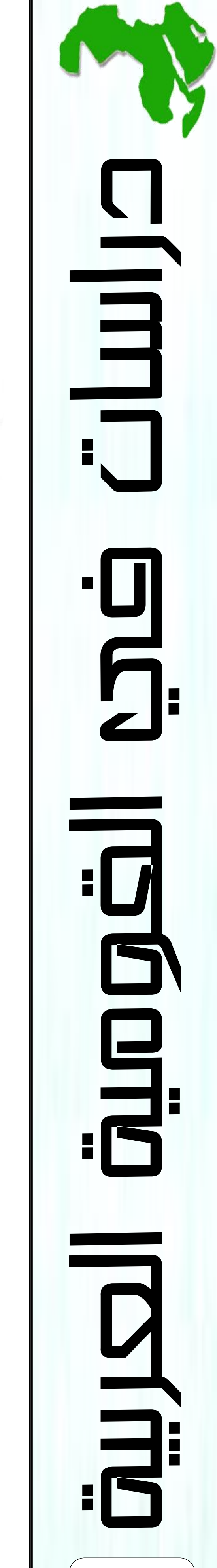
ان العوامل التي تكوّن الامم هي نفسها في تحول وتطور ، وهذا ما اغفله اكثر علماء الاجتماع الذين بحثوا هذا الموضوع ، فقد ذكروا الارض والعرق واللغة والدين والثقافة والتاريخ والمنفعـة المشتركة . وهذه العوامل ليست مختلفة في نصيبها من التأثير في تكوين الامة فحسب ، ولكنها نفسها تتفاوت في قوة تأثيرها بحسب الزمن والطور الحضاري الذي تمر الامة به . فقد كانت الارض بموقعها ومناخهـا وجوها وطراز الحياة فيها ، ذات اثر كبير في الحياة الابتدائية الاولى ، حين كانت المواصلات قليلة ، وسلطان الانسان على الطبيعة ضعيفا . وكذلك كان للعرق البشري الذي تكون في تلك الارض بخصائصه المادية والمعنوية اثره في حياة الامة . ولكن اثر هذين العاملين الماديين آخذ بالضعف والنقصان كلما ارتقت الامم واتصل بعضها ببعض وكثرت الاتصالات المادية والمعنوية . والتطور البشري آخذ في اتجاه يقوى



فيه بازدياد مستمر اثر العوامل المعنوية كالثقافة والمعتقدات والافكار ، وما ينبثق عنها من انظمة اجتماعية وسياسية وعادات • وعلى هذا فالمناقشة التي يناقش بها علماء الاجتماع هذا الموضوع والتي قوامها المفاضلة والمقابلة بين هذه العوامل خاطئة من اساسها لانها مبنية على نظرة يركد فيها الزمن **ستاتيك** ، لا على نظرة حركية زمنية **ديناميك** •

لقد كان الانتساب الى الارض والعرق هو الرابطة الاساسية بين افراد شعب او قبيلة • ثم تطورت هذه الرابطة تطورا تدريجيا فاصبحت الرابطة بين افراد امة من الامم هي رابطة الانتماء الى ثقافة واحدة ومعتقدات واحدة ، سواء اكانت هذه المعتقدات دينية في صبغتها ام اجتماعية • وبذلك تطور مفهوم **الامة** وتطور واقع الامم نفسه • فبعد ان كانت الامة تتألف بالدرجة الاولى من المنتمين الى اصل واحد أصبحت تتألف من المنتمين الى مفاهيم واحدة أو متشابهة في الحياة وان كانوا غالبا بالاضافة الى ذلك منتمين الى اصل نسبي او عرق غالب • ومن احدث اشكال الامم التي يجمع بينها نظام الحياة ومفاهيمها وفلسفتها ، الاتحاد السوفيتي ، وامريكا • فكل منهما مجموعة بشرية كبيرة تتكون من قوميات مختلفة ، يجمع بينها الفلسفة الشيوعية والنظام الشيوعي في الاتحاد السوفيتي ، والفلسفة الديمقراطية والنظام الديمقراطي بمعناه المعروف في البلاد الغربيةوفي الدول الامريكية المتحدة • ومع ذلك فقديكون للعوامل القومية فيداخل هذين المجتمعين السوفيتي والامريكي اثر قوي يختفي وراء مظاهر من الافكار والمبادىء والتيارات والتصرفات العامة والتطورات السياسية ، الى جانب الاثر التوحيدي الناجم عن العقائد والمفاهيم المشتركة •

من هنا يبدو لنا ان مفهوم الامة في تطور • وذلك لان تكوين الامم نفسها في تطور مستمر يتجاوز تفكيرنا الموروث الجامد عن الامة ، فهي في طور انتقال من التكوين العضوي **البيولوجي** الى





التكوين العقائدي الايديولوجي .

١) القومية حقيقة قائمة وواقع

ان مما لا يمكن انكاره ، كما تبين مما سبق ، أن القوميات حقيقة واقعة ووجود قائم ، له أثره في حياة البشر في الماضي والحاضر ، ولذلك وجب أن يؤخذ بعين الاعتبار في النظر الى الحياة الانسانية وفيما يقام فيها من انظمة ومذاهب . فالجماعات القومية هي القاعدة الارضية التي تقام عليها وتنفذ بواسطتها وتنتشر منها . وانتماء الانسان الى قوم بعينه وتحدثه بلغتهم وتطبعه بعاداتهم وشعوره بالارتباط بهم وبارضهم جزء من صفات الانسان الواقعية التي كانت ولا تزال . فالناس مذ كانوا حتى يومنا هذا منقسمون الى اقوام وشعوب ، عرب وهنود وصين واتراك وصقالبة وفرنسيون والمان واسبانيون ... وان انتماء الانسان الى شعب من هذه الشعوب له اثره الخاص في حياته وتصرفاته ، وان عاطفة الانسان نحو بني قومه التي تبلغ احيانا حد العصبية لم تمح قط من الوجود . ولكن الاديان والمذاهب الاخلاقية حاولت ايجاد روابط انسانية عامة تخفف من هذه العصبية التي قد تبلغ حد الافراط والغلو وتجاوز الحق ، ولكنها لم تمحها من الوجود .

فلا يزال الناس منقسمين الى جماعات وشعوب تسكن من الارض بقاعا مختلفة ، ولها لغات متنوعة وعادات وفنون وآداب مختلفة . بل ان عملية اختمار القوميات وتكون قوميات جديدة من قبائل كانت مشتتة ، أو من مجموعات كانت متفرقة في دول سياسية متعددة لايزال يجري حتى الآن ؛ كما تجري عملية معاكسة أحيانا ، وهي انضواء قوميات متعددة تحت لواء فكرة أو مذهب واحد كامريكا والاتحاد السوفيتي والصين ، وكلها في الحقيقة مؤلفة من قوميات أو من عناصر قومية متعددة .







فالقومية كواقع حقيقة قائمة في البشرية لها أثرها في حياتهم الفكرية والسياسية والفنية .

٢) القومية باعتبارها نظرية اجتماعية علمية

ومن علماء الاجتماع من يتخذون من القومية نظريـة علمية يعلل بها الحياة البشرية وتطورها وتاريخها وحضاراتها . فيدعون ان لصفات الاجنـاس والعروق وخصائصهم وصفـاتهم الاثر الاكبر في تكوين الدول ، وابـداع الحضارات ، وان كل جنس من البشر او شعب من الشعوب يبدع نوعا خاصا من الحضارة تظهر فيها مواهبـه ونواحي عبقريته . ويعللون كذلك الحروب بالصراع بين القوميات ، ويرون في المبادىء والمذاهب والاديان كذلك مظهراً من مظاهر خصائص الشعوب وعبقرياتها . ونعتقد ان هذا الاتجاه لاتقره نظريات علم الاجتمـاع الحديثة ، ولا البحث العلمي ، وكل ما يمكن قبوله من هذه النظريـة هو ان انقسام البشرية الى قوميات والانتماء الى احدى هذه القوميات عامل من جملة العوامل الكثيرة المعقدة التي تؤثر في مجرى الحيـاة الانسانية ، ولكنه ليس العامل الوحيد . ثم ان هذا العامل نفسه نتيجة لعوامل تختفي وراءه ، كالبيئة الطبيعية ، والحوادث التاريخية ، والافكار والمذاهب ، والمراحل الحضارية التي تمر بها الامم وغيرها .

لا نستطيع ان نقول مثلا ان التقدم العلمي والاكتشافات الحديثة في ميادين الطبيعة هي نتيجة مباشرة لفعالية قومية معينة ، او مظهر من مظاهر عبقريتها . ولا يمكن ان نزعم أن اليهودية والمسيحية والاسلام هي مظهر للعبقرية الساميّة ، وأن الاسلام هو من عمل العبقرية العربية. بل لا يمكن ان نزعم مثل هذا الزعم حتى للمذاهب الفلسفية والاجتماعية. ان هذا نوع من الافتراض الذي لا يمكن للبحث العلمي الموضوعي ان يقبله أو أن يأتي عليه ببراهين مقبولة علميـا ، وان كنا نستطيـع ان

نقول من جهة أخرى ان الاديان التي هي من وحي السماء ومن مصدر إلهي كالنصرانية والاسلام ، والمذاهب الفلسفية والاجتماعية ذات الصفة الانسانية العامة والتي هي من صنع الانسان وتفكيره كالديمقراطية والشيوعية ، ان هذه وتلك ، مع صفتها العـامة واطارها العالمي ، تتفاعل مع كل شعب أو قومية بكيفية خاصة ، وتأخذ اشكالا متنوعة ، على مابين هذه الاشكال من عناصر عامة مشتركة . فالديمقراطية كما فُهمت وطبقت في انكلترا غيرها في فرنسا او في امريكا او في ايطاليـا . والشيوعية كما فهمت وطبقت في روسيا غيرهـا في يوغوسلافيا أو الصين . والاسلام كما فهمه العرب وطبقوه تبدلت ملامحه وطرائق تطبيقه عند الفرس والاتراك ، فشاب توحيده الصافي أنواع من الشوائب وتحولت مرونته التي تجلت في الاجتهاد في عهد الصحابة والتابعين الى جمود نصوصي واغلاق لباب الاجتهاد ، وتبدلت نظرة الناس الى أميرهم على انه واحد منهم ، الى نظرة طبقية ارستقراطية . هذا مع ان الاسلام ثابت الاصول في القرآن والسنة ، واضح المعالم والتاريخ ، عالمي الرسالة والمبادىء ، إلهي المصدر .

القومية منهب سياسي

ومن المفكرين والسياسيين في كثير من الامم من يرون في القومية مذهباً سياسياً ، قوامه جمع ابناء القومية الواحدة على اختلاف احوالهم وأديانهم في وحدة جامعة وفي ظل دولة مستقلة ذات سيادة ، والاعتماد في ذلك على الفطرة الطبيعية التي تربط بين افراد الشعب الواحد ، الذين يتكلمون لغة واحدة ، ويعيشون في ارض واحدة ، ولهم عادات متشابهة وثقافة مشتركة ان هذا النوع من التكتل والتجمع طبيعي في حياة البشر وتاريخ البشرية ، وكلما عرضت ظروف عاقت هذا الوضع الطبيعي وبدلته ظهرت دوافع نفسية وتيارات اجتماعية لارجاعه الى أصله . ولذلك فان الامم التي قسم شعبها وأرضها لسبب من الاسباب ، أو احتلت وغلبت على امرها ، لا بد ان يدفعها دافع طبيعي للوحدة والتحرر والاستقلال .

وفي حال يقظتها وسريان الوعي بين افرادهاونمو شعور الكرامةوالسيادة وروح الاستقلال في نفوسهم ، يقوى هذا الدافع ويبرز في شكل تيارات شعبية وأحزاب سياسية ونهضات أدبية وثورات نضالية ، ويبرز من صفوف هذه الامة ومن مناضليها قادة يوجهون النهضة ويقودون الجموع ، سواء أكانوا قادة سياسيين أو فكريين أو أدباء ، يعبرون عن عواطف الشعب وأفكاره وأهدافه ، أو يدفعونه الى مراحل جديدة ويبعثون في نفسه العواطف الكامنة ويشعلون المشاعر الخامدة .

وفرق كبير بين هذا المفهوم السياسي للقومية والمفهوم العقائدي السابق ، فلا يرد على هذا المفهوم ما يرد على ذاك من اعتراضات علمية ، ولا ينتج عنه ما ينتج عن ذاك من النتائج التي قد تتعارض مع الاخلاق أو الاديان . وهو يحقق الاهداف نفسها التي يسعى من أجلها أصحاب المفهوم العقائدي دون ان يتخذ منها ومن مفهوم الامة أصناماً جديدة ، أو أن يخلق وثنية حديثة .

وقد يستعمل أصحاب هذا المفهوم السياسي تعابير المفهوم العقائدي، توسعا وعلى سبيل المجاز ، دون أن يقصدوا منها ما يقصده أصحاب ذلك المفهوم كاستعمال لفظ **الايمان و العقيدة** بمعنى الاعتقاد بضرورة وحدة الامة وتحررها .

أضف الى ما تقدم أن هذا المفهوم السياسي للقومية لا يخلق بين القوميات تعارضاً ولا يمنع تعاونها اذا ما تم لكل واحدة منها تحقيق أهدافها في الوحدة والحرية . وأما المفهوم العقائدي الذي يجعل من القومية القيمة العليا والغاية النهائية والعقيدة الشاملة للوجود، فانه يؤدي الى تعارض تام بين القوميات واتجاهاتها ، ويخلق في كل منها جيلا لا يعرف الانسانية ولا يقدس الا قوميته ، وتتكون البشرية من أجيال من البشر تحركهم وتوقع بينهم العصبيات الخاصة فتدفعهم الى الحروب والاستعمار .



والمفهوم السياسي للقومية ينسجم مع اتخاذ الامة المبادىء الانسانية والاخلاقية والروحية دستوراً لقوميتها ، ولكنه يفسح المجال ضمن الخطوط العامة لمبادىء الامة ومثلها العليا لمختلف طرائق التفكير والتعبير الفني ، أمام الافراد والفئات ، وبالنسبة لكل أمة من الامم •

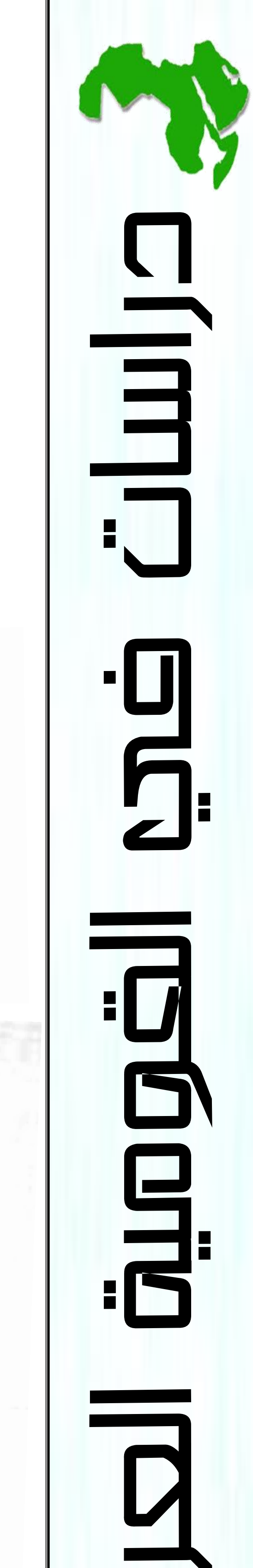
إن المفهوم السياسي للقومية ينسجم مع كون القومية حقيقة قائمة وجودا وواقعا ، وهو الذي يعطى هذا الواقع حقه القانوني في الميدان الدولي ويقيم ميزان الحق بين القوميات • ان حرية شعب من الشعوب واستقلاله بالنسبة الى الشعوب الاخرى مرتبط بكيانه ووجوده وارادته•

هذا وان المفهوم السياسي يمكن ان يستند ويتقوى بتاريخ الامة وامجادها وتراثها وما تملكه من قوى معنوية ومادية ، فان ذلك يقوي معنويات ابناء الامة في نضالهم وحماستهم في الدفاع عن كيان ثمين يملكونه ، وعزيز على أنفسهم بما لهم فيه من ذكريات تبعث النشوة أو الألم •

وان النهضة العربية في العصر الحديث مذ بدأت في أواخر العهد العثماني بأعلامها وثوراتها ، وكما تمثلت في نفوس الشعب العربي ، تنهل من هذا المفهوم وتتجه هذا الاتجاه ، ولا سيما في الثورة التيقامت عليها الجمهورية العربية المتحدة ، اذا استثنينا نفرا قليلا أو جماعات قليلة محدودة تكونت لهم بحكم بيئاتهم وظروفهم الخاصة مفاهيم أخرى مختلفة عن هذا المفهوم العام •

٣) القومية باعتبارها عقيدة ومذهباً فلسفياً

ومن الفلاسفة والمفكرين من يرى في القومية مذهبا فلسفيا ، ونظرية اخلاقية ، وعقيدة في الحياة • فالقومية غاية يضحى في سبيلها ومثل أعلى يجاهد لتحقيقه ، ومجدها واعلاؤها هو الغاية النهائيـة للنضال والعلم والعمل في الحياة وهي فوق القيم الانسانية والخلقية والدينية ، بل هي المقياس الصحيح لهذه القيم ••





فالوجود الحقيقي الخالد هو وجود الامة ، أما الفرد فوجوده عارض وهو مظهر زائل متبدل لحقيقة وراء وجود الافراد وأثبت وأخلد من وجودهم • وللامة روح وشخصية معنوية أقوى من الافراد ، وهي تتجلى فيهم وتتجسد في حياتهم خلال الزمن • فالقومية مبدأ روحي جماعي ؛ وتحقيق روح الامة وشخصيتها المعنوية باستمرار هو هدف الجماعة وقاعدة السلوك المثلى ولو أدت الى تقييد حرية الافراد أو الاعتداء على الاجانب عن القومية •

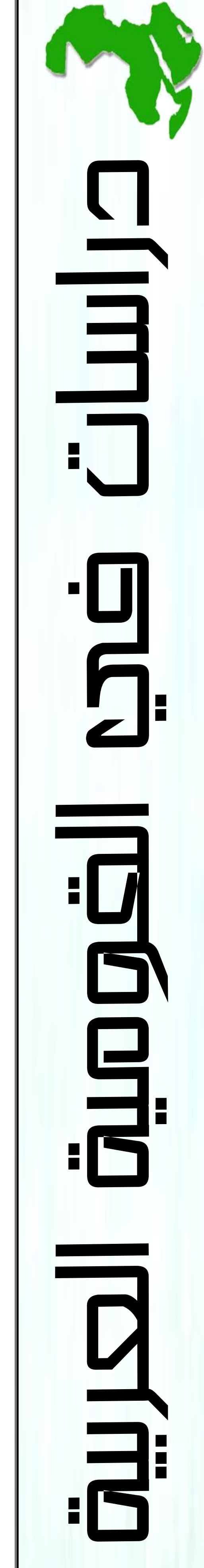
لقد أصبحت القومية عند بعض الامم كالالمان في العهد النازي ، تبعا لهذا المفهوم الشامل ، دينا يحل محل الاديان ويزاحمها ، ومذهبا كسائر المذاهب الفلسفية التي تضاهي الاديان في استغراقها لحياة الانسان، ولا سيما الناحية العقائدية أو فلسفة الكون والحياة [1] ولهذه العقيدة شعائرها ، التي توقظ روحها وفكرتها في الجماهير ، وأبطالها الذين هم « انبياء » هذه العقيدة و « وحواريوها وقديسوها » • وقد تبلغ حماسة معتنقي هذه العقيدة حداً يدفعهم الى بذل النفس والمال في سبيل الحفاظ على « روح الامة » التي تكاد تحل محل الإله المعبود في الديانات ، والى العزوف عن اللذائذ والعيش عيشة التقشف ، والى ضرب من السلوك والشعور يخيل الى أصحابه انهم صوفيون روحيون كصوفية أهل الاديان وروحانيتهم ؛ وهو شعور ناجم في الحقيقة من ذوبان الفرد في الجماعة ، وطغيان روح الجماعة على الفرد طغيانا يشعره ان قوة خارجة عنه تستهويه وتجتذبه ، فيخضع لها خضوع العباد ، ويذهل بها اعجابا ذهول الفنانين •

---

(١) قال عمر الفاخوري في كتاب له سماه (كيف ينهض العرب) اصدره في بيروت عام ١٣٣١ هـ :

« لاينهض العرب الا اذا أصبحت العربية أو المبدا العربي ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلمون على قرآن النبي الكريم ، والمسيحيون الكاثوليك على انجيل المسيح الرحيم ، والبروتستانت على تعاليم لوثر الاصلاحية ، وثوروبو فرانسا في عهد الرعب على مبادىء روسو الديمقراطية ، ويتعصبون لها تعصب الصليبيين لدعوة بطرس الناسك » .

ومن المعلوم ان عمر الفاخوري اصبح شيوعيا بارزا في الطور الاخير من حياته ! . .





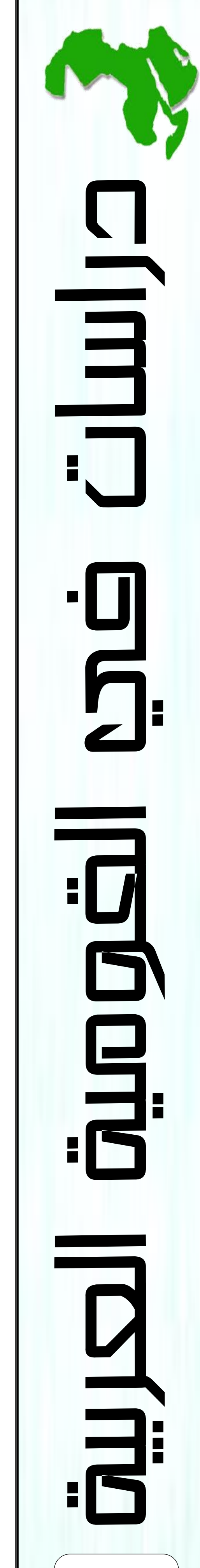
حتى ان بعض فلاسفة القومية في بعض الامم الاوربية جعلوا للعقيدة القومية ثالوثا يضاهئون به ثالوث المسيحية فان مازّيني الايطالي جعل غاية القومية : الاستقلال والوحـدة والحرية • وكان ثالوث الثورة الفرنسية الاخاء والحرية والمساواة • وجعلها آخرون الوحدة والتحرر والاشتراكية [1] • والحقيقة ان هذه غايات عملية بالنسبة الى الشعوب والامم وتختلف باختلاف حاجاتها وأوضاعها • فالامة المجزأة لا بد لها من الوحدة ، والمحتلة أو المستعمرة تصبو الى التحرر والاستقـلال ، والمنظمة تنظيما جائرا طبقيا أو اقطاعيا تتوق الى العدالة والاشتراكية • فهي غايات اجتماعية نسبية تختلف بحسب الاحوال والعهود ، وليست غايات نهائية للانسانية تصلح ان تحل محل الغايات الكبرى التي هي جزء من العقيدة التي يدين بها البشر •

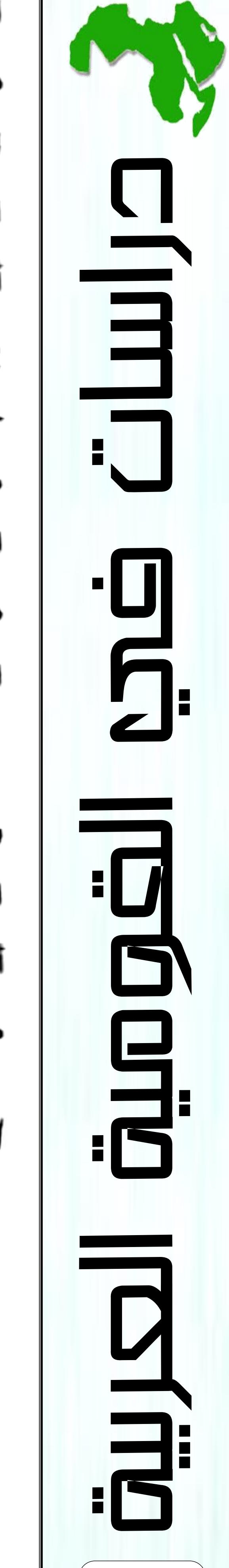
لقد انقلب الواقع في هذه النظرية الى واجب ، والوجود الى مثل أعلى ، والسنة الطبيعية الى قانون اخلاقي واجب الاتباع • وأصبحت القومية شاملة للوجود كله مع انها في الحقيقة جزء منه ، وغدت هي نفسها عقيدة ومثلا أعلى في حين أن كل قومية محتاجة الى عقيدة ومثل أعلى • ذلك ان معنى القومية الانتماء أوالانتساب الى قوم ، فهي للجماعة كالأنا بالنسبة للفرد ، فكيف يصح ان يكون هذا الانتماء نفسه مثلا أعلى وغاية للوجود ؟ قد يكون مقبولا ان يقول انسان اني اختار المثل الاعلى المنسجم مع انتمائي الى جماعة قومية معينة ، أي ان ثمة تناسباً بين كل قومية ومثلها الاعلى ، أما ان يكون مجرد الانتساب غاية في الحياة فأمر غير مقبول •

هذا وان في جعل القومية ذاتها مذهباً اجتماعياً أو اخلاقياً شاملا للوجود مخالفة للواقع وغروراً خادعا من جهة ، وهو سبب من جهـة اخرى لنشوء نوع من العصبية الجماعية جرّت في كثير من الاحيان الى

---

(1) حصرت بعض الجماعات اهدافها وغاياتها في شعار (الله والملك والوطن) .





ارتكاب بعض الامم للجرائم والآثام بحق الغرباء عن قوميتهم ، مسوغين ذلك لانفسهم باعتبار أن كل ما يؤدي الى ارتفاع قوميتهم واعلائها فهو ليس مباحا فحسب ، بل واجب يجاهد في سبيله ، وهذا ما وقع فيه النازيون من الالمان • ولا يحل هذه المشكلة الا اشتراك القوميات في أهداف انسانية ومثل عليا مشتركة ، يساهم كل منها في سبيل تحقيقها بقدر استعداده وحسب ميوله وتبعا لمواهبه وخصائصه ، ويشتركون جميعا في الايمان بهذه القيم الخلقية والانسانية ، وبذلك تكون القومية مرتكزا طبيعيا للمثل الانسانية العليا ، وتكون الرابطة في داخل القومية الواحدة وبين افرادها رابطة انسانية اخلاقية ، ويكون الدفاع عن القومية دفاعا عما تحمله من مثل عليا وقيم خلقية ، ويؤدي ذلك الى تعاون القوميات واقامة سلم دائم بينها •

وقد تشترك عدة قوميات في مثل أعلى أو في نظام عقائدي واحد وفي ثقافة مشتركة تنبثق عنه كما حدث ذلك بين الامة العربية والامم الاسلامية الاخرى ، وكما جرى في العصر الحاضر بين الشعوب التي أخذت بالمادية الاشتراكية والنظام الشيوعي ، هذا اذا كانت تلك الشعوب مؤمنة فعلا بهذه المبادىء •

الصلة بين العروبة والإسلام

ان الصلة بين الاسلام على انه رسالة ونظام شامل للحياة وبين العرب نوضحها بايجاز في الامور التالية :

١ ـ ان الاسلام وحد مفاهيم الامة العربية ونظرتها الى الوجود ومقاييسها الاخلاقية ، فنقلها بذلك من وحدة الارض والدم الى وحدة العقيدة والفكر ، فأقام بذلك بينها انسجاما فكريا وروحيا وجعل لها فلسفة شاملة للحياة •

واذا كان لكل امة صيغة لحضارتها فقد كان الاسلام بالنسبة الى

العرب هو الصيغة التي قبلوها للحضارة ؛ وذلك لا يمنع ان يشاركهم فيها غيرهم ممن قبل هذه الحضارة وآمن بمبادئها من الامم الاخرى •

٢ ـ ان الاسلام ، وان كان دينا إلهيا ووحيا سماويا انما ظهر في بلاد العرب ، وبشر به رسول منهم ، ونزل وحيه وسطر كتابه بلغتهم ، وهم اول من تولى تبليغه وتفهيمه للناس ، وهذه مزايا خاصة به من بين المذاهب الدينية والفلسفية ، ومزية خاصة بالعرب بالنسبة الى سائر الشعوب الاسلامية •

٣ ـ ان الاسلام جعل للعرب في الحياة رسالة ذات مثل عليا واتجاهات انسانية وقيم خلقية ، ولم تكن كذلك حضارات العرب من قبله •

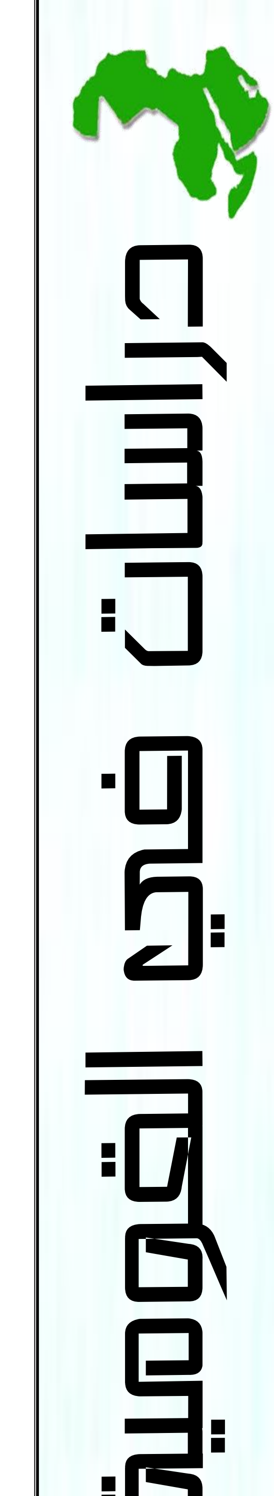
وقد نقلهم الاسلام من المرحلة الانعزالية الى المرحلة الانسانية ، ومن الصعيد القبلي والاقليمي الى الصعيد العالمي •

٤ ـ لقد كان بين العرب ومبادىء الاسلام تجاوب خاص واتصال صميمي ، وذلك مما يدل على حكمة اختيار الله للعرب للتبشير بهذه الرسالة • كما ان بينهم وبينه تلازما تاريخيا طويلا وارتباطا مكانيا ووحدة في المصير ؛ فقد كان كما قال الاستاذ ساطع الحصري **قوة دافعة** بالنسبة اليهم و**قوة واقية** كذلك [1] ، فهو الذي دفعهم الى الانطلاق الى العالم لتحريره من الظلم والضلال والجهل ، فامتدوا في الارض وانتشروا في اطرافها ، وهو الذي حفظ تماسكهم ولغتهم واخلاقهم •

٥ ـ لقد جعل الاسلام العرب مركز اشعاع ومصدر هداية ، وجعل بيدهم قيادة شعوب اشتركت معهم في الايمان بمثله العليا وعقائده ومبادئه ، القيادة الثقافية على الاقل ، بل القيادة السياسية أيضا ، فهو امتداد ثقافي لشخصيتهم ، والصعيد المشترك بينهم وبين الشعوب التي قبلت الاسلام وحضارته •

٦ ـ يؤلف الاسلام اضخم جزء من تاريخهم ، وهو اكبر قوة معنوية يملكونها ، والعنصر الاساسي في ثقافتهم ، ولذلك كان فصله عنهم أو

(١) ساطع الحصري (ما هي القومية) ؟ الفصل الاخير .



فصلهم عنه افقار واضعاف لهم ومناصرة للغزو الاجنبي لهم ، وتفريغ لمحتوى حضارتهم ، واستئصال لمفاهيمهم ، وفسح المجال امام الشعوبيات الاجنبية لتترعرع على حسابهم ؛ وفي ذلك خسارة لا يرجع ضررها عليهم وحدهم بل على الانسانية جميعا •

ولئن كان الاسلام بالنسبة للمسلم دينه وعقيدته ، فهو بالنسبة للعربي المسيحي تراثه القومي ومادة ثقافته • ومن حسن الحظ ان الاسلام نفسه فسح المجال للنصرانية لتعيش معه والى جنبه ، وحمى مقدساتها ومعتنقيها ، وصان معابدها ، وجعل بينه وبينها صعيدا مشتركا يتلخص في اعتبارها دينا سماويا مصدره وحي إلهي ، وفي وحدة الاسس الاعتقادية الجوهرية وفي أن المسيح كلمة الله وروح منه ، وانه ولد من ام عذراء طاهرة بتول من غير أب • وان أقرب الناس « مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى » ، وان في انتصار الروم ، وهم نصارى ، حينما انتصروا على الفرس ، وكانوا يومئذ وثنيين ، نصرا يفرح به المؤمنون •

ان نصارى العرب كانوا وما زالوا جزءا من أمتهم • ولئن وصلتهم بدين ابن مريم صلوات الله عليه أسباب ، فان لهم بالاسلام كذلك صلة وشيجة ، فهو تراثهم القومي • من خلاله نظرت امتهم الى العالم ، وعلى أساسه بنت حضارة بل حضارات ؛ وهو مادة ثقافتهم ، وفي صفحات تاريخه مفاخر امتهم ؛ ومعاذ الله ان يتنكروا لعروبتهم وامتهم •

